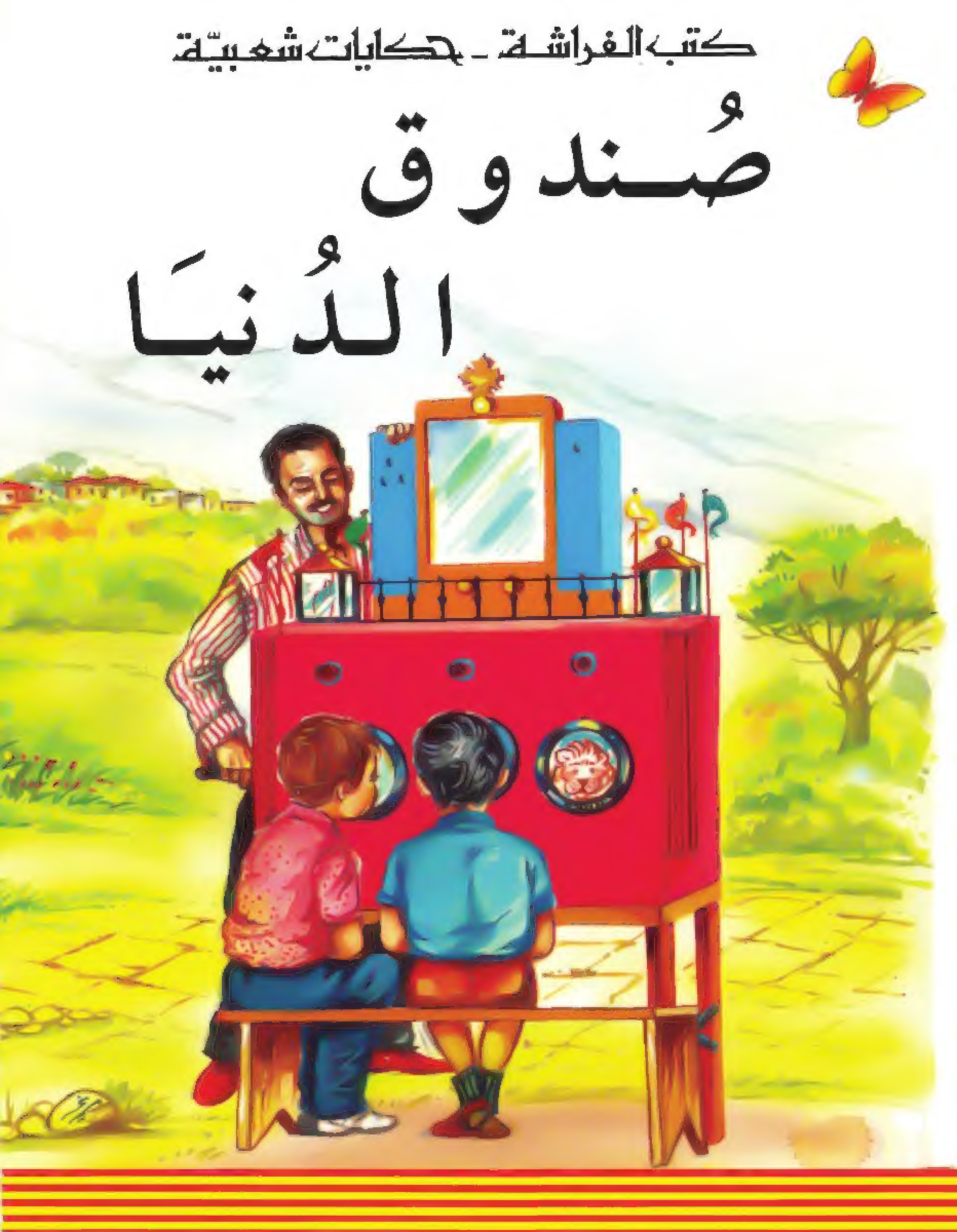

كتب الفراشة - حكايات شعبيّة
صُندوق
الدُنيَا

ما هي هَذه «الحِكايات الشَّعْبِيَّة»؟

إنَّها لَمحات مِنَ الماضي وصُوَر مِن التُّراث بأساطيره وتَقاليده وعاداته، نَسيناها أَو كِدْنا نَنسى مُعظَمها، يُعيد إحياءَها الأَديب إميل يوسف عوّاد بقَلَمه الصّادِق الشّفّاف.

مَع هَذه الحِكايات، يَعود أَبناء الجِيل الجَديد إِلى جُذورهم الّتي هُمْ عنها غافِلون، فما يَنطبِق على قَرية يَنطبِق على كُلّ القُرى، وما يَحْدث لِفَرْد قد يَحْدث مَثيلُه لباقي أفراد المُجتمَع.

إنَّها دَعوة لِلرُّجوع إلى الضَّمير والسَّيْر في طَريق الإيمان بِالله ومَحبَّة الإِنْسان لِأخيه الإِنْسان والارْتِباط بِالطَّبيعة والأَرْض والوَطَن، مِن أَجْل حَياة هانِئة وادِعة بَريئة.

كُلّ ذَلكَ بأُسلوبٍ رَشيقٍ جَذّابٍ هو أَبْعَدُ ما يَكونُ عن الوَعْظِ المُباشِرِ والعِباراتِ الطَّنّانةِ.

كتب الفراشة - حكايات شعبيّة

صُندوق الدُنيَا

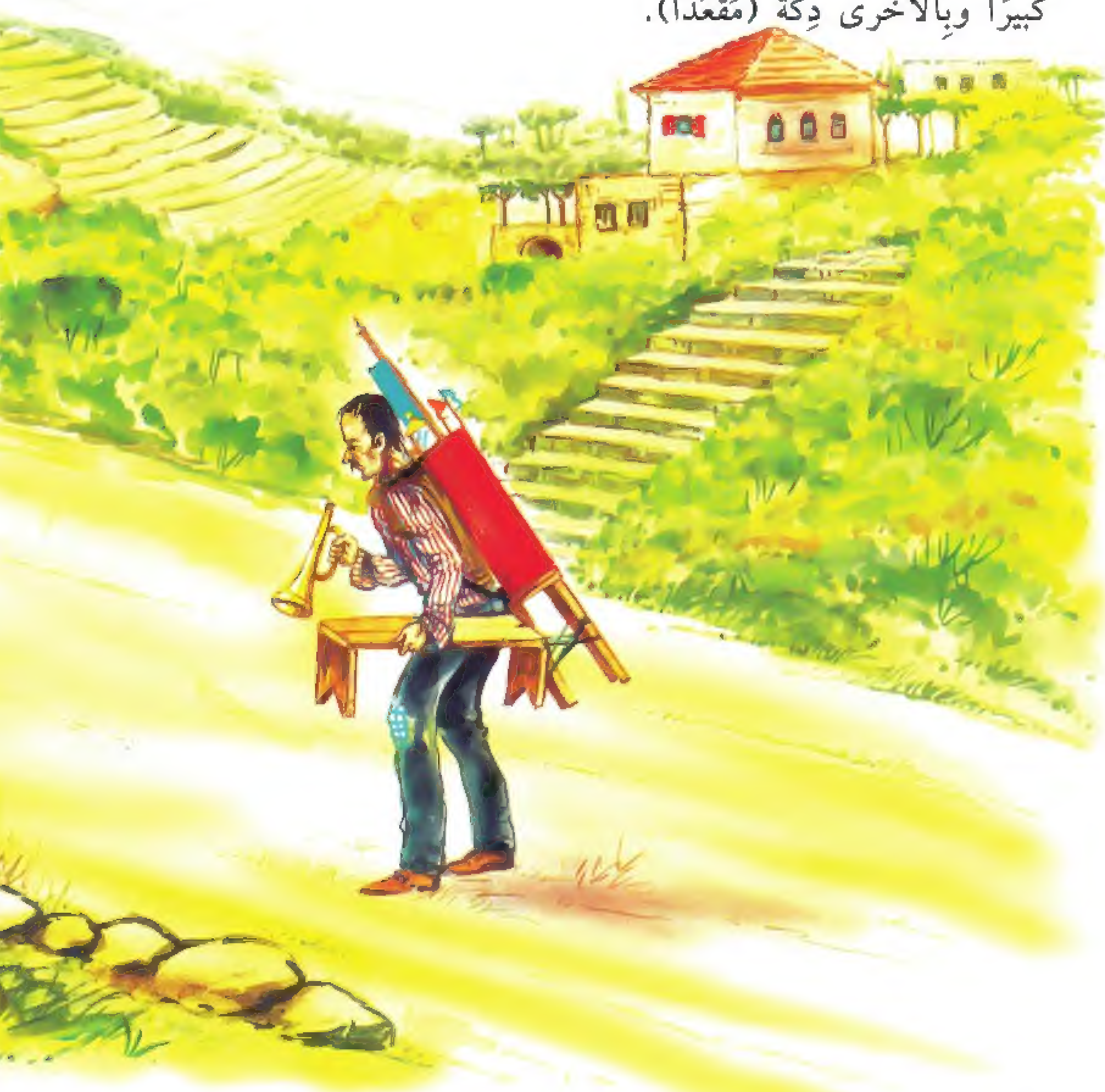


إميل يوسُف عوّاد



مكتبة لبنان ناشرون

طَويلُ القامَةِ، نَحيلُ الجِسْمِ، أَسْمَرُ البَشَرَةِ، يَرْتَدي سِرْوالًا مُمَزَّقًا وقَميصًا باليًا. يَحْمِلُ عَلى ظَهْرِهِ بَطانِيَّةً مِنَ الصّوفِ وفَوْقَها صُنْدوقٌ خَشَبِيٌّ، تَرْتَفِعُ مِنْ جوانِبِهِ أَعْلامُ دُولٍ كَثيرَةٍ، ويُمْسِكُ بِإِحْدى يَدَيْهِ بوقًا كَبيرًا وبِالأُخْرى دِكَّةً (مَقْعَدًا).







يَتَّكِلُ عَلى العُطْلَةِ المَدْرَسِيَّةِ الصَّيْفِيَّةِ. في بِدايَةِ هذا الفَصْلِ يَجيءُ إلى قَرْيَتِنا، يَنْصُبُ خَيْمَتَهُ في ساحَتِها.

زَبائِنُهُ مُعْظَمُهُمْ مِنَ الأَطْفالِ وتَلامِذَةِ المَدارِسِ. يَنْفُخُ في بوقِهِ عِدَّةَ مَرّاتٍ فَيَنْتَشِرُ زَعيقُهُ في سَماءِ القَرْيَةِ، ثُمَّ يُنادي: «تَعا تفَرَّجْ يا سَلام. تَعا تفَرَّجْ بِالتَّمام. شوفْ قدّامَك عَجايِب. شوفْ قدّامَك غَرايِب. تَعا تفَرَّجْ يا سَلام».

ويَرْكُضُ الأَوْلادُ ويَتَسابَقونَ وفي يَدِ كُلٍّ مِنْهُمْ «قِرْشٌ».





إنَّهُ صُنْدوقُ الدُّنْيا. لَهُ ثَلاثُ طاقاتٍ (فَتَحاتٍ). سينما أَيّامِ زَمانٍ. تَقْعُدُ عَلى الدِّكَّةِ (المَقْعَدِ) وتُصَوِّبُ نَظَرَكَ إلى إحْدى الفَتَحاتِ. ويَقِفُ وَراءَ المَقْعَدِ صاحِبُ الصُّنْدوقِ، يُديرُ الفيلْمَ. وهُوَ عِبارَةٌ عَنْ بَكَرَةٍ داخِلَ الصُّنْدوقِ، عَلَيْها لَفَّةٌ مِنَ الوَرَقِ زُيِّنَتْ بِالعَديدِ مِنَ الصُّوَرِ المُلَوَّنَةِ لِلعُظَماءِ مِنْ مُلوكٍ وأُمَراءَ ورُؤَساءِ جُمْهورِيَّةٍ وأَبْطالٍ وشُعَراءَ ونِساءٍ فاتِناتٍ وغَيْرِها مِنْ صُوَرِ الجِبالِ وَالأَنْهارِ والمُدُنِ والحَيَواناتِ والطُّيورِ...

يَقِفُ عِنْدَ كُلِّ صورَةٍ. يُعْطي شُروحاتِهِ عَنْها حَريصًا على أَنْ لا يُفَوِّتَ عَلى الجالِسينَ عَلى المَقْعَدِ أَمامَهُ صورَةً أَوْ شَرْحًا. فَيَأْمُرُ الَّذينَ أَحاطوا بِهِ مُنْتَظِرينَ دَوْرَهُمْ بِالصَّمْتِ والهُدوءِ.





يُنادي كُلَّما رَأى أَنَّ عَدَدَ الأَوْلادِ يَتَضاءَلُ:

«بِقِرْشٍ واحِد يا سَلام، بِتْشوف الدُّنْيا وما فيها».

ها هُوَ يَضَعُ يَدَهُ على يَدِ البَكَرَةِ ويُديرُها. فَتَخْرَسُ الأَلْسُنُ وتَخْتَنِقُ الأَنْفاسُ. عِنْدَ كُلِّ صورَةٍ يُعْطي شُروحاتِهِ عَنْها ثُمَّ يُعيدُ الافْتِتاحِيَّةَ:

- «تَعا تفَرَّجْ يا سَلام. تَعا تفَرَّجْ بِالتَّمام. شوفْ قدّامَك غَرايِب».

يَغْمِزُ بِطَرَفِ عَيْنِهِ اليُسْرى:

«دي السِّتّ رَيّا. دي الّتي سَمْرا شوَيَّة. كُلّها سِحْر، كُلّها حَلاوَة».

حَقًّا كانَتِ السِّتّ رَيّا مِنْ آياتِ الجَمالِ.



الصّورَةُ الثّانِيَةُ، يَضْحَكُ، يَضْحَكُ مَعَهُ الجُمْهورُ:
«دي السِّتّ عَبْلَه. رَيْت عضامها ما تِبْلَى».
سَبَبُ الضَّحِكِ هُوَ أَنَّ السِّتّ عَبْلَه تَزِنُ ما يَزيدُ على مِائَةٍ وخَمْسينَ كيلو.







الصّورَةُ الثّالِثَةُ، هُنا يَرْتَفِعُ صَوْتُهُ وتَرْتَفِعُ يَداهُ إلى أَعْلَى.

«دَه الأَسَد الكَرّار والبَطَل المِغْوار الّذي شاعَ ذِكْرُهُ في الأَقْطار وأَذَلَّ بِسَيْفِهِ كُلَّ صِنْديدٍ جَبّار، المُهَلْهِل بْن رَبيعَة، صاحِب الأَشْعار البَديعة. والوَقائِع المَهولَة المُريعَة».

أَعْطَى هذِهِ الصّورَةَ كُلَّ حَقِّها. حَتّى إِنَّهُ تَحَدَّثَ عَنْها بِاللُّغَةِ الفُصْحى ناقِلًا بَعْضَ ما كُتِبَ عَنْها في التّاريخِ حَرْفِيًّا.





فِي نِهايَةِ الفيلْمِ يَعودُ إلى بوقِهِ. يَنْفُخُ فيهِ ثُمَّ يُنادي:
«تَعا تفَرَّجْ يا سَلام. تَعا تفَرَّجْ بِالتَّمام. شوفْ قدّامَكْ غَرايِب، شوفْ قدّامَكْ عَجايِب».

إِنْتَشَرَتْ دورُ السّينما في الأَرْياف ودَخَلَ التِّلفِزْيونُ إلى كُلِّ بَيْتٍ، وغابَ صُنْدوقُ الدُّنْيا. نَسِيَهُ النّاسُ. إنَّما أنا لَمْ أَنْسَهُ أَبَدًا. ولَنْ أَنْساهُ.

لا لِأَنّي لَسْتُ مِنْ هُواةِ السّينما والتِّلفِزْيونِ، بَلْ لأَنَّ لي مَعَ صُنْدوقِ الدُّنْيا ذِكْرَياتٌ لَنْ تَمْحُوَها السِّنونَ.



ذاتَ يَوْمٍ مِنْ الصَّيْفِ، جاءَ صُنْدوقُ الدُّنْيا إلى قَرْيَتي وهُرِعَ الأَوْلادُ إلَيْهِ. كانَ أَبي غائِبًا، فَذَهَبْتُ إلى أُمّي أَطْلُبُ «قِرْشًا».

وبِما أَنَّ أُمّي لا تُحِبُّ حَمْلَ المالِ- وكانَ المالُ في حَوْزَةِ أَبي دائِمًا- أَعْطَتْني بَدَلَ «القِرْشِ» رَغيفًا مِنَ الخُبْزِ، ذلِكَ أَنَّ صاحِبَ صُنْدوقِ الدُّنْيا كانَ يَرْضى بِأَخْذِ رَغيفٍ بَدَلًا مِنَ القِرْشِ. فَيَجْمَعُ الخُبْزَ في كيس ويَبيعُهُ في آخِرِ النَّهارِ إلى أَصْحابِ الدَّكاكينِ.





قَعَدْتُ عَلى المَقْعَدِ وصَوَّبْتُ عَيْنَيَّ إلى داخِلِ إحْدى الطَّاقاتِ (الفَتَحاتِ) الثَّلاثِ.

وبِانْتِباهٍ شَديدٍ أَخَذْتُ أُحَدِّقُ إلى كُلِّ صورَةٍ وأَتَفَحَّصُ تكْويناتِ العُظَماءِ؛ وفي اعْتِقادي أَنَّ العُظَماءَ هُمْ مِنْ طينَةٍ تَخْتَلِفُ عَنْ طينَةِ البَشَرِ، وأَشْكالَهُمْ هِيَ غَيْرُ أَشْكالِنا. وبِالرُّغْمِ مِنْ أَنّني اكْتَشَفْتُ أَنَّهُمْ مِثْلُنا تَمامًا، فَقَدْ ظَلِلْتُ مُتَعَطِّشًا إلى رُؤْيَةِ صُوَرِهِمْ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكونَ قَدْ فاتَني شَيْءٌ مِنْ تَكْويناتِهِم ويكونَ هذا الشَّيْءُ سِرَّ عَظَمَتِهِمْ.







فِي ذٰلِكَ اليَوْمِ اقْتَرَفْتُ جُرْمًا كَبيرًا. أَخَذْتُ كُلَّ ما كانَ في مِعْجَنِنا. وكانَ فيهِ كَما أَذْكُرُ، ما لا يَقِلُّ عَنْ عَشَرَةِ أَرْغِفَةٍ، وتَفَرَّجْتُ مُقابِلَ هٰذِهِ الأَرْغِفَةِ عِدَّةَ مَرّاتٍ عَلى صُوَرِ العُظَماءِ.



عَلِمَتْ أُمّي بِذلِكَ. أَرادَتْ تَحْضيرَ المائِدَةِ ظُهْرَ ذلِكَ اليَوْمِ. وَجَدَتِ المِعْجَنَ فارِغًا، قَرَصَتْ أُذُني بِقَساوَةٍ. وحَذَّرَتْني مِنْ مُواجَهَةِ أَبي قائِلَةً: «يا وَيْلَكَ مِنْ أَبيكَ ساعَةَ يَعْرِف ما صَنَعْتَ». هَرَبْتُ واخْتَبَأْتُ عِنْدَ الجيرانِ.









فِي المَساءِ كانَ قِصاصي غَيْرَ ما تَخَيَّلْتُهُ. تَخَيَّلْتُهُ مُؤْلِمًا ومُرْعِبًا. أَجْبَرَني أَبي أَنْ أَقِفَ في الزّاوِيَةِ مُدَّةَ ساعَتَيْنِ وأَنْ أَنامَ بِدونِ عَشاءٍ.



أَمّا القِصاصُ الّذي اسْتَحَقَّهُ صاحِبُ صُنْدوقِ الدُّنْيا، فَقَدْ كانَ عَلى الشَّكْلِ التّالي: عِنْدَما عَلِمَ أَبي بِما حَصَلَ، ثارَ غَضَبًا وقالَ لِأُمّي: «اِبْنُنا طِفْلٌ لا يُدْرِكُ مَسْؤولِيَّةَ ما فَعَلَ. المَسْؤولِيَّةُ تَقَعُ على الّذي يُدْرِكُ».

وأَرْسَلَ مِنْ قِبَلِهِ مَنْ ذَهَبَ يَبْحَثُ عَنْ صاحِبِ صُنْدوقِ الدُّنْيا لِتَأْنيبِهِ.
وكانَ نَصيبُهُ أَكْثَرَ مِنْ تَأْنيبٍ: تَحْطيمَ الصُّنْدوقِ وقَذْفَهُ إلى الوادي.





وعِنْدَما وَصَلَ الخَبَرُ إلى أَبي ارْتَدَّ التَّأْنيبُ إلى الرَّسولِ الّذي تَجاوَزَ حَدَّ ما طُلِبَ مِنْهُ وقالَ لَهُ: طَلَبْتُ مِنْكَ تَأْنيبَهُ لا تَحْطيمَ صُنْدوقِهِ. أَلا تَعْلَمُ أَنَّ قَطْعَ الأَرْزاقِ مِنْ قَطْعِ الأَعْناقِ؟



رَحَلَ صاحِبُ صُندوقِ الدُّنْيا عَنْ قَرْيَتِنا. وغابَ زَعيقُ بوقِهِ. وكَرَّتِ السِّنونَ وأَصْبَحَ بِإِمْكاني التَّمَتُّعُ ساعَةَ أَريدُ بِمُشاهَدَةِ صُوَرِ العُظَماءِ، وذلِكَ مِنْ خِلالِ أَفْلامِ السّينما الحَديثَةِ وأَفْلامِ التِّلفِزْيونِ.







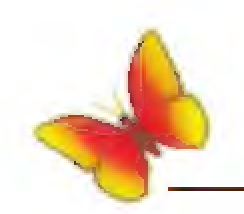
لكِنْ أَجِدُني أَتَشَوَّقُ دائِمًا إلى صُنْدوقِ الدُّنْيا. فَأَذْهَبُ إلى آخِرِ القَرْيَةِ حَيْثُ لا تَزالُ بَقاياهُ المُحطَّمَةُ في قاعِ أَحَدِ الأَوْدِيَةِ وحَيْثُ يُخَيَّلُ إلَيَّ أَنَّ أَصْداءَ زَعيقِ وأَصْداءَ نَشيدِهِ لا تَزالُ تَتَرَدَّدُ وتُناديني: «تَعا تَفَرَّجْ يا سَلام».

كتب الفراشة - حكايات شعبيّة

١. تاكسي أبو شاكر
٢. العَنزة وَالغولَة
٣. أبو الحِنّ
٤. صندوق الدُّنيا

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل.
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت، لبنان

الطبعة الأولى، ١٩٩٦
طُبع في لبنان
رقم الكتاب 01C193104



كتب الفراشة

حكايات شعبية ٤. صُندوق الدُنيا

صُنْدوق خَشبيّ مُتنقِّل مِن قَرْية إلى قَرْية.

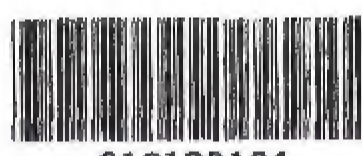
إنّه سينما أيّام زَمان.

– «تعا تفرّجْ يا سَلام! تعا تفرّجْ بِالتّمام. شوف قدّامَك عَجايب. شوف قدّامَك غَرايِب.. تعا تفرّجْ يا سَلام!»

فَيُقْبِلُ الصّغار ويَتَفرّجون مُقابِلَ «قِرْش» أو رَغيف خُبْز.

لَكِنَّ أحَدَ هَؤُلاء الصّغار كان له قِصّة طَريفة مَع ذَلك الصُّنْدوق.





01C193104

مكتبة لبنان ناشرون